اخوان الصفـــا : بين البراءة والاتهــــام

١ ــ من هم اخوان الصفـــا ؟

سؤال يحتاج فى اجابته الى الدقة ذلك أن هذه الجماعة قد لفهم الغموض من كل جانب واحاطتهم السرية . مما جعـــل الباحثين يختلفون فى تحـــديد هويتهم فذهب البعض الى أنها جماعة قامت لتقويض الدين الاسلامى وهدم أركانه وأنهم من القرامطة المعروفين بالعنف الثورى وبعدائهم للدين الاسلامى يدل على ذلك عبثهم بالمسجد الحرام وحيازتهم الحجر الاسود وهذا الراى مردود بأن الرسائل المنسوبة الى اخوان الصفاء لا تدعو الى العنف الثورى وانما تدعو الى الالفة والمحبة والصفاء بين الناس كما يدل ـــ لذلك الاســـم الذى اختاروه لانفسهم (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) .

وذهب العباسيين وأنهم فى سبيل ذلك مستعدون للتعدى على حرمات الاسلام . وأصحاب هذه الآراء قد اعتمدوا جميعهم على نص ورد فى شـــأن هذه الجماعة لأبى(١) حبان التوحيدى فى حوار دار بينهم وبين وزير صمصام الدولة أخد أمراء دولة بنى بويه فقد سأل الوزير أبا حبان التوحيدى عن هذه الجماعة فأجاب بأنهـــا جماعة تصـــاحبت بالعشرة ــــ وتلاقت بالمودة ون لهم رســـائل مبثوثة عنـــد الوراقين وهذا النص يقع قرابة عشرين صفحة وهو المصدر الوحيد الذى استقى منه كثير من الباحثين آراءهم حول هذه الجماعة . ومما ذهب اليه هؤلاء الباحثون أن لهذه الجماعة تقوصا وأعياد تخصهم وانها لا تتفق على ما أجمعت عليه الامة الاسلامية من تقوص وأعياد وقد وقع هؤلاء الباحثين فى هذا التصور لجؤ الاخوان فى لغتهم الى الرمز أخذا بمبدأ التقية مما سنفصله فى حينه .

وجملة هذه الآراء لا تكاد تعرب عن حقيقة هذه الجمـــاعة من وجهـــة نظرنا ذلك أن حقيقة هذه الجماعة كما أوصلنا الى ذلك البحث الدؤوب هى انها طلائع فكرية لطائفة الاسماعيلية ومعلوم أن طائفة الاسماعيلية هى فرع من فروع الشيعة وأنها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصـــادق وأن هذه

---

(١) الامتاع والمؤانسة ، جـ٢ من ص٢ الى ٢٢ طبعة القاهرة ١٩٤٢ .

الطائفة قد أسست مذهبها على أسس فلسفية ولقد تبنى هذا الرأى القائل بأن جماعة اخوان الصفاء هم الطليعة الفكرية للاسماعيلية كثير من العلماء الاسماعيلية العارفين بأسرار هذه الطائفة من أمثال الامير عارف تامر فى كتابه حقيقة اخوان الصفاء والاستاذ مصطفى غالب فى كتابه (تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر) — كما أيد هذا الرأى التشابه الشديد فى رسائل اخوان الصفاء وكثير من كتب الاسماعيلية حيث يمكن تبين — الارتباط الشديد بين اخوان الصفاء وطائفة الاسماعيلية كما يدل اتجاه أسلوب الرسائل الى الرمز أخذا بمبدأ التقية الذى يقول بأن للانسان أن يظهر خلاف ما بقلبه ان خاف على نفسه الهلاك وهو من المبادىء الرئيسية التى تقوم عليها دعوة الاسماعيلية .

٢ — زمان ومكان اخوان الصفاء :

وكما اختلف الباحثون حول هوية اخوان الصفا اختلفوا أيضا على المكان الذى عاشوا فيه والزمان الذى كانوا فيه . فذهب البعض الى أنهم عاشوا بالبصرة في — النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ومعلوم أن البصرة كانت تحت سلطان الدولة البويهية فى هذا الحين . وقد اعتمد القائلون بهذا الرأى أيضا على نص أبى حيان التوحيدى الذى سبقت الاشارة اليه وذهب بعض هؤلاء الباحثين الى أن الجماعة كان لها فرع بغداد ومن بين المنتمين الى هذا الفرع أبو العلاء المعرى وكانت رئاسته لأبى سليمان السجستانى المنطقى وقد أوردوا أسماء بعض أفراد الجماعة بالبصرة وهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ويعرف بالمقدسى وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعونى وزيد ابن رفاعة وقد بحثت كثيرا عن هذه الاسماء فلم أجد لها ذكر بمعاجم الاعلام قديمها وحديثها مما يورد على هذا الرأى الكثير من الشكوك . أما مسألة فرع بغداد فانها مردودة أيضا لما رواه أبو حيان التوحيدى من أن رسائل اخوان الصفا قد عرضت على أبى سليمان السجستانى والذى يزعم القائلون بوجود فرع ببغداد أنه كان رئيسا لهذا الفرع فردها ورفض ما بها وسخف من شأن مؤلفيها ولا يعقل هذا من رئيسا لفرع جماعة أخوان الصفا ببغداد مما يرد هذا الرأى فى جملته

ويذهب فريق من الباحثين الى أن هذه الجماعة قد عاشت فى سلمية بسوريا

فى أواخر القرن الثانى الهجرى او أوائل القرن الثالث وانهم كانوا اتباع احمد بن عبد الله أحد أحفاد الامام اسماعيل امام الطائفة الاسماعيلية الاول ويرجح هذا الرأى ما سبق ان قلناه حول هوية الاخوان وانهم طلائع الفكر الاسماعيلى ــ كما يؤيده أيضا ورود كثير من الاقوال فى الكتب السرية المنسوبة الى الاسماعيلية حول اخوان الصفا .

٣ ــ رسائل اخوان الصفا :

هى تلك الموسوعة التى حملت ذلك الاسم والتى حوت شتى الفنون وغرائب الحكم وطرائف الادب ، فهى بستان تعددت أزهاره وتنوعت ثماره ، وهى تشتمل على اثنتين وخمسين رسالة موزعة على أربعة أجزاء ، وقد قدم الاخوان لها بفهرست يبين محتوياتها هو بالمختصر اشبه منه بالفهرست ، ذلك انه يتضمن وصفا لكل رسالة وبيانا لفصولها . وقد قسم الاخوان هذه ــ الرسائل الى أربعة أقسام : القسم الاول فى الرياضيات ويشتمل على أربع عشرة رسالة ، والثانى فى الجسمانيات الطبيعيات ويشتمل على سبعة عشر رسالة ، والثالث النفسانيات العقليات ويشتمل على عشر رسائل ، والقسم الرابع الناموسيات الالهيات ويشتمل على احدى عشر رسالة .

ومن دراسة هذه الرسائل ، يتبين ان الاخوان قد سلكوا فيها مسلكا تثقيفيا عالجوا به أغلب معارف عصرهم وهم يتبعون نظاما متسلسلا خاصا بهم فى اعداد موسوعتهم فيبدأون بالرياضيات لأنهم يعتقدون انها مدخل ضرورى لدراسة علوم الحكمة . وانها عنصر أساسى لتقويم العقل والالتزام بالمنطق ولذلك جعلوا المنطق قسما من أقسام العلوم الرياضية .

ثم يثنون بالجسمانيات الطبيعيات بعد أن يكون العقل قد استقام بفعل الرياضة . وأصبح قادرا على تمييز ما يستمده من الحواس وهو أول طرق المعرفة عندهم لاخراج ما بالقوة الى الفعل ، ثم يتعبون ذلك بدراسة النفسانيات العقليات تأديا الى الناموسيات الالهيات ، وهى أسمى المعارف والغاية القصوى للمعرفة .

٤ ــ طبعــــات الرســـائل :

منذ حدثنا أبو حيان التوحيدى فى كتــابه « الامتـــاع والمؤانسـة » عن رسائل اخوان الصفا وذكر أنها مبثوثة لدى الوارقين ، لا نكاد نقع على ذكر فى كتب القدماء لهذه الرسائل اللهم الا بعض التلميحات التى ــ يلجأ اليهـا بعض أصحاب المصنفات الكبيرة من أمثال « جاجى خليفة » فى كتابه (كشف الظنون) وهى تلميحات تدق كلها ــ فى الاغلب حول نص التوحيدى المشار اليه . كما أن هذه الرسائل ــ على ــ قيمتها العلمية والفنية ــ لم يتح لهـا من الانتشار ما أتيح لكثير غيرها من الكتب ، ولعل مرجع ذلك تستر مصنفيها من جهة ورفض جمهرة الناس لها من جهة أخرى لما حام حولها من شبهات بل لقد تعرضت الرسائل للمطاردة والاحراق : وقد أحرقت أيام المستنجد بالله عام ٥٥٥هـ حيث وجدت لدى القــاضى ابن المرخم وأحرقت مرة ثانيـــة حين نقشت دار عبد السلام بن عبد الوهاب الملقب بركن الدين المتوفى ٦١١هـ .

وقد ظهرت أول طبعة لهذه الرسائل بمصر حين قام الشيخ على يوسف بتحقيق وطبع الجزء الاول فيها ثم قام الاستاذ خير الدين الزركلى بتحقيقها كاملة وطبعها على مقدمتين احداهما لاحمد زكى بك والثانيـــة للدكتـــور طه حسين ، وقد كان ذلك عام ١٩٢٨ وقد توالت بعد ذلك طبعـــات الرســـائل والكتابة عنها واشهر هذه الطبعات هى طبعة دار صادر بيروت عام ١٩٥٧ وقد قدم بها وحققها الاستاذ بطـــرس البستانى . هذا الى جانب طبعـــات أخرى بألمانيا والهند الا أنها أقل حظا من الشهرة من طبعتى مصر وبيروت .

٥ ــ اســـلوب الرســـائل :

يتميز اسلوب الرسائل بيسر وسلاسة وبساطة على خلاف ما نجده فى الكتب التى فى عصرها فكتب ابن سينا مثلا تحتاج الى كثير من اعمال الذهن لاستظهار معانيها وما تحتويه وقد لجأ الاخوان الى هذا اليسر ليسهلوا انتشار الرسائل بين العامة ويختلف الاسلوب فى الرسائل العلمية حيث يكون واضحا بعيدا عن الرمز عنه فى الرسائل الالهية حيث الرمز الكثير والاشارات المتعددة نظرا لشعورهم بخطر الموضـــوع . وقد خصص الاخوان من بين رسائلهم رسالة عرفت برسالة فى الانسان والحيوان وهى تكاد تشبه كثيرا كتاب كليلة

ودمنة الذى ترجمه عبد الله بن المقفع وتدور هذه الرسالة على محاكمة الحيوانات للانسان لما يوقعه عليها من ظلم وعسف وهى رسالة طريفة تتضمن كثيرا من الرموز والاشارات التى أراد بها الاخوان ترجمة كثير من أفكارهم .

٦ ــ قيمة الرسائل :

تعد رسائل اخوان الصفا عملا موسوعيا رائعا يتميز به الاخوان عن غيرهم فى هذا المجال ، فهم يعالجون فيها العلوم الرياضية والطبيعية والموسيقية والاخلاقية والالهية وتحت هذه الموضوعات تفصيلات تكاد تجمع علوم عصرهم . وهم يتوخون فى عرضها الطرق التعليمية التى تعين المتعلم على فهمها وتسهل له حفظها واستظهارها .

وقد أثنى أحد الذين تعرضوا لدراسة الرسائل على قيمها فقال « من أبرز الموسوعات التى ظهرت فى تاريخ الثقافة الانسانية ــ وأخلدها على الدهر ، وأجدرها بالمباهاة ، موسوعة اخوان الصفا التى تعتبر فى الصفوف الاولى من روائع المنتجات العملاقة المجهولة القيمة ، المهضومة التقدير ، بل هى فى رأينا أنفس وأعمق وأنفع من دائرة المعارف الفرنسية الاولى ، التى تباهى بها أهلها حتى رفعوها الى السماء ، ولاتزال أوراجهم تنتفع بها حتى الآن » .

ويضفى الاخوان على رسائلهم قيمة كبيرة ، ويعتزون بها اعتزازا فائق الحد ، فينصون على أنها ، بستان خضر بهيج ، مونق معجب .... وعلى الرغم من هذا الاثراء فقد حاول البعض أن يوجه الى الرسائل النقد الشديد والبحث لتبين ما تتضمنه ولعل هذه العجالة السريعة عن اخوان الصفا تكون الهدامة واذا ما أخذنا الامر بنظرة موضوعية فلا يسعنا الا أن نقول ان الرسائل كأى عمل علمى لها وعليها وأنها لازالت تحتاج الى الكثير من الجهد محل المغفرة فيما عسى أن يكون فيها من تقصير فموضوع مثل اخوان الصفا

لا تفى به مقالة وانما قصدت مجرد القاء الضوء وعسى أن أستطيع فيما بعد تناول هذا الموضوع فى أعداد تالية ان شاء الله .

والله ولى التوفيق

عمـــاد الدين رجب
مدرس مساعد الفلسفة والعقيدة
بكلية الدراسات الاسلامية
والعربيـــة للبنـــات
بالاســـكندرية